« رحلة وادنجتون فى السودان »

(١٨٢٠ — ١٨٢١)

عرض وتحليل

للدكتور نسيم مقار

« جورج وادنجتون George Waddington » رحالة انجليزى أغرم بالسياحة . وقد زار بعض بلاد أوربا والشرق . واشتهر كرحالة إلى جانب شهرته كمؤرخ للكنيسة . وقد كان زميل كلية ترنتى بكمبردج Fellow of Trinity, Cambridge كما تولى منصب أسقف مدينة درام Durham ثم اختير محافظاً لجامعتها(١) .

ظروف الرحلة ودوافعها الرئيسية :

أما عن زيارته للسودان فلم تكن متعمدة ، فقد عزم على القيام برحلة إلى بلاد اليونان وآسيا الصغرى . وفي طريقه إلى اليونان مرّ بالبندقية (في يناير ١٨٢٠) ، وهناك التقى بصديقه « برنارد هنبرى Hanbury »الذى وجده يستعد للقيام برحلة إلى مصر والنوبة لمشاهدة معالمها الأثرية ، ويحدوه الأمل في أن يتقدم جنوباً حتى دنقلة . وقد ألح « هنبرى» على « وادنجتون » في أن يرافقه في هذه الرحلة . وأخيراً وقع « وادنجتون » تحت تأثير وإقناع صديقه ، وقَبلَ أن يصحبه في رحلته إلى وادى النيل ، وحدد الوقت الذى تستغرقه زيارته لبلاد اليونان وآسيا الصغرى ببضعة أشهر يقضيها في التجول بين ربوعها ، ثم يغادرها إلى مصر والسودان .

وبعد أن أمضى « وادنجتون » و« هنبرى» الربيع ومعظم الصيف في بلاد اليونان أبحرا إلى الاسكندرية ، فوصلاها فيمنتصف أغسطس عام ١٨٢٠ .

---

(١) Richard Hill : A biographical dictionary of the Anglo - Egyptiian Sudan, p. 375.
George Waddington : Journal of a visit to some parts of Ethiopia, p. i.

هناك تأكد لهما ما سبق أن ترامى إلى مسامعهما من أن حملة بقيادة اسماعيل بن محمد على والى مصر قد غادرت القاهرة في طريقها إلى الجنوب لضم البلاد الواقعة فيما وراء الشلال الثاني إلى ادارتة . وقد وجدا في هذه الحملة فرصة سانحة لتحقيق رغبتهما في زيارة هذه البلاد ، الأمر الذى كان من المحتمل ألا يتحقق لهما بنجاح تام لو لم تتح لهما هذه الفرصة . ومن ثم قررا مرافقة الحملة ، وعرضا هذه الرغبة على الوالى الذى لم يبد تشجعياً كبيراً لهما ، إلا أنه على الأقل لم يعترض عليها(١) .

وقد قدمهما إلى والى مصر القنصل الإنجليزى في ذلك الوقت « مستر بيترلى Mr. Peter Lee الذى كان بحكم طبيعة عمله لايمانع في مديد المعونه والمساعدة للمسافرين من بنى جنسه ، وهناك انجليزى آخر أبدى أيضاً عطفاً ملحوظاً على مشروع «وادنجتون » و « هنبرى» لزيارة بلاد النوبة ، وشجعهما كثيراً على تنفيذه ، وقدم لهما المعونة في سبيل انجاحه ، يدعى مستر « براين Brine » . فعندما وجد هذا الانجليزى أنه لايرافقهما أحد من الأتراك ، كما وأنهما لايحملان أى خطاب توصية لأحد من ضباط الحملة ، سعى إلى أن يمدهما بخطاب توصية من عابدين كاشف الرجل الثاني في الحملة بعد اسماعيل . وقد كان « براين » جاراً وصديقاً لعابدين وقت أن كان الأخير حاكماً على إقليم المنيا في صعيد مصر. ويعبر « وادنجتون » عن أهمية هذا الخطاب في تحقيق رغبته في هذه الرحلة بقوله « إنه بدونه كان سيصبح لحاقنا بالجيش أمراً عسيراً ، ووصولنا إلى بلاد النوبة كان من المحتمل ألا يتحقق . » ويضيف « وادنجتون » إلى ذلك « إن هذا العمل يعد من الخدمات الجليلة التى ندين بها لهذا الرجل الإنسان ذى النفس الكريمة »(٢) .

وفي ١٠ نوفمبر عام ١٨٢٠ وصل « وادنجتون » ورفيقه « هنبرى» إلى وادى حلفاً ، ومنها إلى بطن الحجر في ١٢ نوفمبر . وفي ١٣ نوفمبر وصلا إلى دارسكوت ، ومنها إلى دار المحس في ١٨ نوفمبر . وفي ٢٢ نوفمبر

---

(١) Waddington. Op. cit., p.p. III, IV.

(٢) Waddington : Journal of a visit to some parts of Ethiopia, p. IV.

وصلا إلى دنقلة ، ومنها تابعا سيرهما إلى دار الشايقية التي وصلاها في ٧ ديسمبر (عام ١٨٢٠) .

وبعد الوصول إلى دار الشايقية رغبا في مواصلة تقدمهما جنوباً إلى سنار برفقة الحملة ، ولكن رغبتهما لم تجد قبولاً لدى قائدها اسماعيل الذى كان لايشعر بالارتياح التام لوجودهما مع جيشه في تلك الأثناء ، وسرعان ما طلب إليهما مغادرة البلاد دون إبطاء بحجة الحرص على أمنهما وسلامتهما مما قد يتهددهما من صعاب ومخاطر (١) . وعبثاً حاول « وادنجتون » أن يؤثر على اسماعيل لكى يعدل عن قراره السالف الذكر(٢) .

وقد علل « وادنجتون » عدم ارتياح اسماعيل قائد الحملة إليه وإلى زميله « هنبرى» وبالتالى إصراره على مغادرتهما البلاد دون أن يتيح لهما فرصة مواصلة تقدمهما جنوباً إلى سنار برفقة جيشه بقوله « إنه كان طبيعياً أن يرغب الباشا في أن يريح نفسه من جماعة من الناس هم ليسوا في خدمته ، ولا يمكن أن يكونوا مفيدين له بطريق من الطرق ، حتى ولو كانوا من بعض الوجوه والاعتبارات مستقلين عنه ، وبالإضافة إلى ذلك فهم مسيحيون ، لأن اسماعيل كان بعيداً عن الأخذ بآراء والده المتحررة في هذا الشأن . وفوق هذا وذاك فإنه يحتمل أنه كان لايزال يتبنى بعض المشروعات السرية ضد الحبشة ، وهو البلد المفروض أنه تحت حماية انجلترا . وقد تخيل أننا سنصبح في هذه الحالة جواسيس على مقاصده - فهل كان إذن من الحكمة أن يحملنا معه على طول الطريق ؟ » (٣) .

ومهما يكن من الأسباب التي جعلت اسماعيل قائد الحملة لايشعر بالارتياح نحو الرحالة « وادنجتون » وزميله « هنبرى» ، ويتخذ قراره الحاسم بمغادرتهما البلاد ، فإن مما لاشك فيه أن هذا القرار كان له أثره الخطير في أن تنتهى رحلتهما في السودان عند دار الشايقية ، في حين أتيحت لغيرهما

(١) المصدر السابق ص ١٠٥
(٢) نفس المصدر ص ١٤٨ — ١٥٤
(٣) المصدر السابق ص ١٥٤

من الأجانب الذين كانوا برفقة اسماعيل فرصة التقدم جنوباً مع جيشه إلى سنار بل إلى ما وراء فيزوغلى[١] .

على أن « وادنجتون » لاينكر في الوقت نفسه الخدمات التى أداها له ولزميله « هنبرى» بعض كبار المسئولين في الحملة ، وبخاصة عابدين كاشف نائب اسماعيل الذى كان قد قدمهما إليه بخطاب توصية صديقه الانجليزى مستر « براين Brine » . ومن هذه الخدمات مدهما بجميع لوازم الرحلة ، ووضع الحراسة الكافية لسلامتهما طيلة مدة سياحتهما في هذه البلاد[٢] .

وليس من شك أن مثل هذه الخدمات التى قدمها كبار المسئولين في الحملة لهذين الرحالين الانجليزيين قد يسرت لهما زيارة هذه البلاد ووفرت لهما عوامل النجاح فيما قاما به من دراسات أثرية وتاريخية واجتماعية واقتصادية في الأقاليم السودانية التى قدر لهما زيارتها ، مما أضفى على رحلتهما طابع الأهمية العلمية والتاريخية .

---

(١) اذ من الملاحظ انه كان برفقة هذا القائد فى حملته على السودان عدد من الخبراء والفنيين الأجانب غير الذين ورد ذكرهم على لسان الرحالة « وادنجتون » نفسه ومنهم العالم الفرنسى « كايو Cailliaud » ورفيقه « ليتورزك Letorzec » والطبيب الرسام « رتشى Ricci » اللذان كانا ساعده الأيمن فى اعداد البحوث الجغرافية وعمل الأرصاد الفلكية . وقد استطاع « كايو » أن يصل مع الحملة فى تقدمها جنوبا الى سنار والى ما وراء فيزوغلى ، وأن يضع مصنفا ضخما فى أربعة أجزاء عن هذه الرحلة التى قام بها برفقة الحملة تحت عنوان :

« Voyage à Méroé et au fleuve blanc » (Paris, 1826)

ومن هؤلاء الأجانب الذين جاءوا أيضا برفقة اسماعيل فى حملته على السودان الرحالة الأمريكى « جورج انجلش English » . وقد كتب كتاباعن هذه الحملة تحت عنوان :

« A narrative of the expedition to Dongola and Sennaar under the command of his Excellence Ismael Pasha » (London, 1822).

كذلك جاء برفقته « كورنر Corner » وزميله « كونستانت Constant » وهم من الانجليز ، و « زوكولى Zuccoli » و « سيجاتو Segato » من الطليان (انظر كتاب مصر والجغرافيا — ص ١٥ — ١٧ — لفردريك بنولا — تعريب أحمد زكى) .

(٢) Waddington : Journal of a visit to some parts of Ethiopia, p. 154.

ولقد سجل « وادنجتون » و« هنبرى» مشاهداتهما ودراساتهما المختلفة في هذه الأقاليم في كتاب نشر في لندن عام ١٨٢٢ تحت عنوان :

« Journal of a visit to some parts of Ethiopia »

وكان تأليف هذا الكتاب من نصيب « وادنجتون » الذى يشير في مقدمته إلى « أن كلاً منهما كان يحتفظ« بجورنال » يسجل فيه أخبار الرحلة ، وأنهما تبادلا الرأى سوياً في تصنيف الكتاب ، وأنه كان من نصيبه القيام بمهمة تأليفه » . ويختم « وادنجتون » حديثه هذا بقوله « وإني لأشعر الآن بأن هذا العمل أبعد من أن يكون تمييزاً خاصاً لشخصى طمعت في الحصول عليه . »(١)

الأهمية التاريخية والعلمية للرحلة :

من دراستنا لظروف الزيارة التى قام بها الرحالة « وادنجتون » للسودان (١٨٢٠ - ١٨٢١) يتضح لنا أنها تمت في الوقت الذى كانت فيه حملة اسماعيل بن محمد على تتقدم في هذه البلاد لضمها إلى الإدارة المصرية الموحدة ، ومن ثم فقد قدر لهذا الرحالة الانجليزى أن يعيش هذا الحدث الهام والخطير في تاريخ وادى النيل ، وأن يشاهد عن كثب صوره المختلفة . ومن هنا تبرز الأهمية التاريخية للرحلة ، وهى تعد بحق من المصادر الأولية التى لاغنى عنها للباحث في تاريخ الحملة .

كذلك تبرز أهمية الرحلة في موضوع تاريخى آخر عنى « وادنجتون » بصفة خاصة ولاعتبارات معينة بدراسته خلال زيارته لهذه البلاد ، وهو قيام دولة المماليك في دنقلة التى أمدنا بكثير من الحقائق والأخبار الهامة عنها ، مما قد لايجده الباحث في أى كتات آخر من كتب الرحالة أو كتب المعاصرين التى عرضت أو تناولت هذا الموضوع التاريخى .

هذا بالإضافة إلى الموضوعات التاريخية الأخرى الهامة التى عالجها « وادنجتون » في تاريخ السودان الحديث مثل الأوضاع السياسية السائدة في بعض أقاليمه قبل مجىء حملة إسماعيل إليها ، وما كانت عليه علاقات الحكام بعضهم ببعض في هذه الفترة .

---

(١) Waddington : Op. cit., p. VI.

كذلك اهتمام « وادنجتون » الواضح بدراسة بعض نواحى الحياة الاجتماعية في بعض المجتمعات النوبية مثل المجتمع الدنقلاوى والمجتمع الشايقى ، كالعادات والتقاليد السائدة في هذه المجتمعات ، والآداب والفنون الشعبية التى اشتهرت بها ، ومركز المرأة ، والمكانة التى حظى بها رجال الدين والفقهاء في المجتمع ، وغير ذلك من الدراسات الاجتماعية التى قلما نجد غيره من الرحالة الذين زاروا السودان في ذلك الوقت قد عنوا بها ، أو وجهوا اهتماماً ملحوظاً إلى دراستها .

وفوق ذلك كله النجاح الذى حققه « وادنجتون » وزميله « هنبرى» في أعمال البحث والتنقيب عن الآثار القديمة في بعض جهات النوبة ، إلى الحد الذى يذهب معه « بدج Budge» أحد المهتمين بدراسة الآثار القديمة في السودان إلى القول « بأن دراسة الآثار السودانية القديمة قد بدأت بإخراج « وادنجتون » و« هنبرى» كتاب رحلتهما في السودان . »

على أن المعلومات والأخبار التى أمدنا بها الرحالة « وادنجتون » خاصاً بموضوعات البحث والدراسة التى قام بها خلال رحلته مع زميله « هنبرى» في أقاليم النوبة المختلفة قد جاءت مبعثرة في أماكن ومواضع متفرقة من كتاب رحلتهما ، وتحتاج إلى نوع من التنظيم والتبويب على النحو الذى ييسر للباحث أو الدارس مهمة الإفادة منها وليس ذلك بالأمر السهل أو الهين إذ يتطلب نوعاً من المثابرة وبذل الجهد والإلمام بتفاصيل الرحلة والظروف التى أحاطت بأصحابها منذ القيام بها حتى مغادرتهما للبلاد السودانية ، وهو ما سعينا إلى تحقيقه .

كذلك فإن إجلاء الحقيقة يتطلب أحياناً مناقشة أقوال هذا الرحالة الانجليزى في بعض ما تناوله من الموضوعات ، على ضوء ما تضمنته الوثائق الرسمية من ذلك العهد المحفوظة بدار الوثائق التاريخية القومية (قصر عابدين) ، أو بمقارنتها بأقوال غيره من الرحالة الذين أتيحت لهم فرصة زيارة هذه البلاد في ذلك الوقت بالذات وبرفقة الحملة أيضاً ، مما كانوا أسعد حظاً منه في

التمتع بعطف ورعاية قائد الحملة ، ومنهم الرحالة « أنجلش English » الأمريكى الذى سبقت الإشارة إليه .

وبعد ، فإليك هذا العرض لأهم ما تضمنته رحلة « وادنجتون » في السودان من المشاهدات أو الدراسات في الأقاليم الرئيسية التى قدر له زيارتها وهى إقليم دنقلة ودار الشايقية ، بعد أن قمنا بتنظيمها وتبويبها على النحو الآتي :

أولا — مشاهدات « وادنجتون » ودراساته فى إقليم دنقلة

جاء الرحالة « وادنجتون » وزميله « هنبرى » إلى إقليم دنقلة في ٢٢ نوفمبر عام ١٨٢٠ . وقد استغرقت زيارتهما لهذا الإقليم زهاء أسبوعين تجولا خلالهما بين ربوعه ومعالمه المختلفة ، إذ زارا جزيرة أرقو أكبر جزر هذا الإقليم ، كما زارا مدنه الرئيسية ومناطقه الأثرية .

دراسة بيئة الاقليم الطبيعية :

وقد قام « وادنجتون » أثناء هذه الزيارة بدراسة بيئة الإقليم الطبيعية بعامة ، وجزيرة أرقو بخاصة ، إذ وصف طبيعة الأرض في هذه الجزيرة ، كما في أجزاء الإقليم الأخرى ، وتحدث عن مدى استغلالها في الزراعة ، وأشار إلى مميزات الإقليم المناخية والنباتية والحيوانية ، وبخاصة الخيول التى اشتهر الدناقلة بتربيتها ، وقد عرض « وادنجتون » لأقوال الرحالة وآرائهم في خصائص الخيول الدنقلاوية ومميزاتها .

وصف المدن الرئيسية :

كما وصف المدن الرئيسية في الإقليم ، وتناول بصفة خاصة مدينة « دنقلة العجوز » ، والأطوار التى مرت بها في العصور التاريخية المختلفة من واقع مشاهدات الرحالة الذين قدر لهم زيارتها خلال تلك العصور . كذلك عنى « وادنجتون » بوصف مدينة « مراغه Maragga » (دنقلة الجديدة) التى أنشأها المماليك الذين فروا من مصر عقب مذبحة القلعة المشهورة عام ١٨١١ ، لتكون مقر حكومتهم التى أقاموها في هذا الإقليم بعد أن حلوا به .

دراسة المجتمع الدنقلاوى :

ولم تقتصر مشاهدات « وادنجتون » ودراساته في إقليم دنقلة على بيئة الإقليم الطبيعية أو مدنه الرئيسية فحسب وإنما قد تضمنت أيضاً المجتمع الدنقلاوى ذاته ، والحياة الروحية لأهل دنقلة والإهتمام بالتعليم الدينى في هذا الإقليم كان أهم ما عنى به « وادنجتون » في دراسته لهذا المجتمع . فقد أشار إلى ظاهرة انتشار أماكن تعليم القرآن الكريم[١] في أجزاء الإقليم المختلفة ، وإلى ما يقوم به الوعاظ المتجولون من الكبابيش بصفة خاصة في هذا السبيل ، كما أشار إلى وجود مدارس يتعلم فيها الأطفال مبادىء القراءة والكتابة ، إلى جانب حفظ القرآن الكريم . وقد حدثنا عن السادة (شيوخ الإسلام) الذين يقومون بوظيفة التعليم ، وما يتمتع به هؤلاء من مكانة سامية في المجتمع . كما حدثنا عن أساليب تعليم الأطفال ، وطرق تأديبهم ، وأنواع الذنوب والأخطاء التى كانوا يعاقبون عادة من أجلها .

وهناك ظاهرة أخرى لفتت نظر الرحالة « وادنجتون » في هذا المجتمع وهى انتشار التخاطب باللغة العربية بين سكانه النوبيين . وقد ناقش وجود هذه الظاهرة ، وعرض لأقوال غيره من الرحالة في هذا الشأن .

ويرتبط بحياة أهل دنقلة الروحية واهتمامهم بالتعليم الدينى تقديرهم العظيم لرجال الدين . وقد حدثنا « وادنجتون » عن الأضرحة التى تقام لمن اشتهر من الفقهاء وشيوخ الإسلام بالصلاح والتقوى في حياته الدنيا ، لتضم رفاتهم الطاهرة ، حيث يتبارك الناس بزيارتها ، وينعمون بالأمن والسلام في ظلها عندما تتهددهم بادرة خطر . وقد أشاد بصفة عامة بما يتحلى به هؤلاء الشيوخ والفقهاء في دنقلة من الخصال والصفات الحميدة التى زادت من تعلق المواطنين بهم وتقديرهم لهم .

وهناك أيضاً جانب هام في حياة أهل دنقلة الإجتماعية عالجه «وادنجتون» في كتاب رحلته بنوع من الإهتمام ، ونعنى به دراسة آدابهم وفنونهم الشعبية .

---

(١) ويقصد بها الخلاوى (جمع خلوة) ، وقد كانت الى جانب المساجد والجوامع والزوايا من أهم أماكن العلم فى ذلك الحين .

فقد تناول الحديث عن طائفة المداحين والمنشدين والشعراء المتجولين ، وعرض لبعض أزجالهم ومواويلهم الشعبية التى استمع إليها في المناسبات المختلفة ، وقد تناولها بالنقد والتحليل بعد أن ترجمت له في حينها إلى اللغة الإنجليزية . وقد سره بعضها ، وعبر عن إعجابه وتقديره لقائليها[١] ، كما وصف لنا أنواع الغناء والرقص الشعبي الذى شاهده في الحفلات الشعبية العامة ، وفي بعض الحفلات الخاصة التى دعاه إليها بعض الشخصيات البارزة في الإقليم .

كذلك تناول « وادنجتون » مركز المرأة في المجتمع الدنقلاوى ، إذ أشار إلى ما تتمتع به من حقوق شرعية كحقها في الميراث ، وإلى ما تتحلى به من الصفات الطيبة التى أكسبتها احترام المجتمع وتقديره لها .

وفضلاً عن ذلك عرض « وادنجتون » في مواضع متفرقة من كتاب رحلته لبعض العادات والتقاليد السائدة بين أهل دنقلة ، كتلك التى تتعلق بأنواع الطعام والشراب التى يقبلون على تناولها ، ومنها عادة شرب العرقي والمريسة المنتشرة بينهم ، كما أشار إلى معتقداتهم في السحر والشعوذة . كذلك أشار إلى طبائعهم وأخلاقهم ، والصفات والخصال التى تميزهم عن غيرهم .

ومن الموضوعات الإجتماعية الأخرى الهامة التى عالجها « وادنجتون » موضوع الجريمة والعقاب في المجتمع الدنقلاوى ، إذ أشار إلى أنواع الجرائم التى يعاقب عليها عادة المجتمع ، وإلى العقوبات التى تفرض على مرتكبيها ، كما نوه في موضع آخر بتمسك حكام هذه البلاد الذين نعتهم بالأمراء الصغار من المكوك والكشاف والمشايخ (وهم غير شيوخ الإسلام الذين سبقت الإشارة إليهم) بأحكام الشريعة الإسلامية في حكم الرعية ، وما يدعيه هؤلاء الحكام من أنهم معينون في مراكزهم من قبل الله وبإرادته ليرعوا شريعته ، ويحققوا عدالة القرآن الكريم بين العباد .

(١) مثل القصيدة التى نظمها احد شعراء النوبة فى مدح شجاعة عابدين كاشف فى محاربة الشايقية وقد وصفه فيها بالصقر الذى جال فى ربوع بلادهم .. وان العناية الالهية أرسلته لخلاصهم من هؤلاء الناس ، وليدخل البهجة والسرور فى قلوب المواطنين (Waddington : Op. cit., p. 258)

التنقيب عن الآثار القديمة فى اقليم دنقلة :

أما عن اهتمام « وادنجتون» وزميله « هنبرى» بالتنقيب عن الآثار القديمة في إقليم دنقلة فقد كان واضحاً وملموساً وبخاصة في جزيرة أرقو . والحق يقال أن هذين الرجلين قد بذلا كل مافي استطاعتهما ، ولم يدخرا وسعاً من أجل تحقيق هذا الهدف العلمى ، على الرغم من الصعوبات والعراقيل التى اعترضت طريقهما في هذا الشأن ، ومنها ما يرجع إلى احجام المواطنين وإعراضهم عن مساعدتهما في أعمال الحفر والتنقيب عن الآثار القديمة ، يضاف إلى ذلك أن عابدين كاشف الرجل الثاني في حملة إسماعيل التى جاء « وادنجتون » برفقتها وتحت حمايتها لم يكن يؤيد في أثناء وجوده في دنقلة قيام هذين الرحالين الإنجليزيين بمثل هذه الأعمال . ومع ذلك فقد نجحا في الكشف عن بعض المعابد والتماثيل في جزيرة أرقو التى يرجع تاريخها إلى زمن الفراعنة ، وقد كان للملك طمبل ملك أرقو ، الذى نجح « وادنجتون » في كسب صداقته ، أثر كبير في هذا النجاح ، إذ بعث إليهما بعدد من حراسه المسلحين بالسيوف والبنادق ليكونوا برفقتهما . ويؤكد « وادنجتون » أنه لم يكن في الإمكان مواصلة التنقيب عن الآثار القديمة في المنطقة دون مساعدتهم ، إذ أنه من الصعوبة بمكان أن تحمل سكان هذه الجهات على القيام بهذه الخدمة ، وقد رفضوا رفضاً باتاً أن يتحركوا حتى تدفيء الشمس الدنيا (على حد تعبيرهم) .. فقط أمكن بطريق إثارة الفزع في نفوسهم حمل سبعة رجال منهم على أكثر تقدير على العمل لمدة ست أو سبع ساعات . ومع ذلك لم يكن عملهم غير مثمر تماماً . فقد كشفوا عن رأس تمثال الجرانيت الأسود الجالس وكذلك أساس الحائط السميك .. »[1] .

الاهتمام بقصة المماليك فى دنقلة :

ومن الموضوعات التاريخية الهامة التى عنى الرحالة « وادنجتون » بدراستها أثناء زيارته لإقليم دنقلة قصة المماليك الذين أقاموا لهم ملكاً في هذا الإقليم عقب فرارهم إلى السودان بعد مذبحة القلعة المشهورة عام ١٨١١ م .

(١) المصدر السابق ص ٢٣٩ ، ٢٤٠ .

وقد مكنته علاقاته الشخصية مع بعض ملوك النوبة وزعمائها ممن عاشوا أحداث هذه القصة ، وبخاصة الذين أسهموا في بعض أدوارها مثل الملك طمبل السالف الذكر ، من الوقوف على الكثير من تفاصيلها ، هذا إلى جانب إلمامه بأقوال الرحالة السابقين الذين عرضوا لهذا الموضوع التاريخى كالرحالة بورخارد . بيد أن « وادنجتون » — فيما يبدو من معالجته له — كان أكثر اهتماماً وعمقاً في دراسته ، فقد جاء بالمزيد من المعلومات والحقائق عن أخبار هؤلاء المماليك ، وبخاصة فيما يتعلق بأخبار الدولة التى أقاموها في دنقلة ، والإنطباعات التى تركها حكمهم في بعض نواحى حياة سكان هذا الإقليم النوبي ، مما يكشف في حقيقته عن صفحة مطوية من تاريخ المماليك في جنوب الوادى .

ولقد أزاح « وادنجتون » بنفسه الستار عن سر اهتمامه بمتابعة قصة هؤلاء الناس في بداية حديثه عنهم ، فقد جاء على لسانه قوله « إنه سوف يلتمس لى العذر إذا تابعت باختصار (وباهتمام) قصة جماعة من الناس يرتبط تاريخهم لسوء الحظ من نقطة واحدة بتاريخنا (تاريخ بريطانيا) »[١] . ثم يقول « وإذا كانت قوة بأسهم التى تعزى إلى شجاعتهم ، وكثرة عددهم لم تستمر طويلاً ، فإنهم على أقل تقدير قد أصبحوا جديرين بالإهتمام من حيث سوء الحظ الذى أخذ يلاحقهم » . ويستطرد « وادنجتون » قائلاً « وأولئك الذين لا يثير في نفوسهم الإعجاب بهؤلاء المماليك باعتبارهم أحسن فرسان العالم رشاقة وأكثرهم شجاعة ، سوف يحسون بالعطف والشفقة نحو جماعة هام أفرادها على وجوههم واضطهدوا وعذبوا ، وكانوا دائماً ضحية الغدر والخيانة » .

والرحالة « وادنجتون » في معالجته لقصة المماليك في السودان قدعرض للظروف التى واجهها هؤلاء المماليك عند حلولهم بهذه البلاد ، فأشار إلى حالة الإنقسام والحرب التى كان عليها ملوك النوبة وزعماؤها في ذلك الوقت وإلى موقف المماليك من الأطراف المتنازعة وإلى حروبهم مع الشايقية أكبر

(١) المصدر السابق : ص ٢٢٥

قوة واجهتهم في تقدمهم نحو الجنوب منذ ان غادروا الديار المصرية . كما تناول بنوع من التفصيل قيام دولتهم في إقليم دنقلة ، فتحدث عن حدود هذه الدولة ، وعن نواحى نشاطهم الإقتصادى فيها والجهود التى بذلوها لتدعيم كيانها . فقد وصف نشاطهم التجارى في « مراغة » (دنقلة الجديدة) التى يذكر أنه لم يمض وقت طويل على تأسيسها حتى غدت هذه المدينة مركزاً تجارياً كبيراً يؤمها التجار من مختلف جهات السودان حتى من دارفور ، وتباع السلع التى تعرض فيها بالأسعار ذاتها التى تباع بها في القاهرة . كما وصف نشاطهم الزراعى في إقليم دنقلة والمشروعات الزراعية التى أدخلوها للنهوض بالزراعة في هذا الإقليم . كذلك تناول « وادنجتون » في مواضع متفرقة من حديثه عن المماليك الإنطباعات التى تركها حكمهم في حياة سكان الجهات التى خضعت لنفوذهم في جنوب الوادى . فقد ذكر هذا الرحالة « إنه بتأثير الحكم المملوكى استمرسكان البلاد التى خضعت لسلطانهم تشعر بقيمة الأساحة وضرورة اقتنائها ، بينما في الجهات الأخرى مثل سكوت والمحس وهى أسبق الأقاليم السودانية إلى الخضوع للحكم المصرى ، ليس للبندقية أو السيف إلا قيمة بسيطة ، فقد كان أهل هذه الجهات يقولون موجهين القول إلينا « ما فائدة الأسلحة لنا ؟ ألسنا تحت حماية الباشا » (١) . وفي موضع آخر من حديثه عن المماليك يصف لنا « وادنجتون » بعض مظاهر التقدم النسبى التى لاحظها بنفسه في المناطق التى خضعت لحكمهم فيقول « إنه كلما تقدمنا في دولة (مملكة) المماليك بدت البلاد أكثر خصوبة وعمراناً بالسكان ، والمنازل جميعها مبنية جيداً بالأحجار على النحو الذى يلاحظ على بناء الأسوار في بعض مناطق إنجلترا »(٢) . وهناك حقيقة أخرى هامة تتعلق باختلاط المماليك بسكان البلاد الأصليين ومدى اندماجهم معهم ، يشير إليها « وادنجتون » ، إذ يقول « إن المماليك بعد أن استقروا في دنقلة ببضعة شهور قاموا بإرجاع معظم زوجاتهم القاهريات ، وتزوجوا من المواطنات النوبيات . وقد ظل هؤلاء الزوجات مخلصات وفيات لأزواجهن المماليك حتى في أواخر أيامهم

(١) Waddington, Op. cit., p. 254.

(٢) المصدر السابق : ص ٢٢٩

التعسة وبعد فرارهم من دنقلة .. وقد كن يواسين أنفسهن بالقول أن خروج المماليك من البلاد كان بإرادة الله ، وليس بإرادة الباشا »[١] .

ثم يتناول « وادنجتون » الحديث عن نهاية المماليك في السودان ، فيصف لنا ما كانت عليه أحوالهم من الضعف والإنحلال عندما جاءت حملة إسماعيل لتقضى على البقية الباقية منهم القضاء المبرم وتمحو كل أثر لوجودهم في هذه البلاد ، وكيف أنهم اضطروا إلى الرحيل من دنقلة إلى شندى إزاء هذا الخطر الداهم الذى يتهددهم ، وقد ظلوا في شندى حتى دب دبيب الخوف في قلب ملكها بعد أن وصلته أخبار انتصارات الباشا على الشايقية ، فأمرهم بمغادرة أراضيه . ثم يأتي « وادنجتون » إلى نهاية قصة المماليك في السودان فيحدثنا عما كان من تشتت شملهم شرقاً وغرباً ، حيث اتجه القسم الأكبر منهم إلى دارفور في حين سار البعض الآخر في اتجاه مضاد نحو شواطىء البحر الأحمر ، وقد توقع « وادنجتون » أن يكون القضاء عليهم أو إبادتهم للمرة الأخيرة أمراً لا مفر منه [٢].

وأخيراً يروى لنا الرحالة « وادنجتون » أنه عندما رجع إلى مصر علم بأن القليل من المماليك ممن نسى أو تناسى ما لا قاه غيرهم من وعود محمد على قد ألقى بنفسه تحت رحمة مهلكه[٣] .

---

(١) المصدر السابق : ص ٢٢٩

(٢، ٣) Waddington : Op. cit., p. 230.

لقد أشار الرحالة « انجلش » الأمريكى الذى كان مرافقا لحملة اسماعيل على السودان فى كتاب رحلته الى ما يؤكد هذه الرواية التى جاءت على لسان الرحالة « وادنجتون » ولكن يزيد الأمر وضوحا ، اذ يقول « ان جماعة من بقايا مماليك مصر الذين كانوا قد هربوا أمام اسماعيل الى شندى ، قد وضعوا أنفسهم تحت حمايته عند وصوله الى بربر ، وقد عاملهم اسماعيل معاملة كريمة جدا .. » ويستطرد انجلش قائلا : « وهناك بقية أخرى صغيرة من المماليك فى شندى هربت الى البلاد الواقعة على البحر الأحمر حيث من المحتمل أن يهلكوا » .

(English : A narrative of the Expedition to Dongola and Sennar under the command of his Excellence Ismael Pasha, pp. 110-111).

ثانيا – مشاهدات « وادنجتون » ودراساته فى دار الشايقية

دراسة طبيعة الاقليم :

إن زيارة الرحالة « وادنجتون » « وهنبرى » لدار الشايقية تنطوى على جانب كبير من الأهمية ، بالنظر إلى ما تضمنته دراساتهما ومشاهداتهما في هذا الإقليم من قيمة علمية ، فقد تناول « وادنجتون » بالوصف جغرافية هذه البلاد حيث فتن بسحرها وجمالها ، وقارن بين هدوء الطبيعة هناك وبين طبيعة السكان أنفسهم التى تميل إلى الخشونة والعنف . كما وصف المناطق الزراعية ، ومدى ما يبذل من العناية في استغلالها .

دراسة الآثار القديمة :

ومن الدراسات الأخرى الهامة التى قام بها « وادنجتون » خلال زيارته لإقليم الشايقية دراسة الآثار القديمة التى اشتهر بها هذا الإقليم . وقد عنى بصفة خاصة بدراسة آثار جبل البركل من معابد وأهرامات ، وكذلك أهرامات البلال التى تقع عند التلال التى تعرف بهذا الإسم .

وإلى جانب ذلك تناول « وادنجتون » الحديث عن معتقدات النوبيين (الأثيوبيين) القدماء الدينية ، ومدى تأثرها بمعتقدات قدماء المصريين وتأثيرها فيها ، وضمن حديثه دراسة مقارنة لأقوال بعض المؤرخين القدامى في هذا الشأن أمثال « هيرودوت **Herodotus** ، و « جوزيف **Josephus** » و « استرابون **Strabon** » و « ديودور **Diodorus** » الصقلى .

دراسة طبائع الشايقية وتقاليدهم :

وفضلاً عن هذه الدراسات القديمة قام « وادنجتون » بدراسة حية لطبائع الشايقية وأخلاقهم وعاداتهم ، وبخاصة ما يتعلق بنزعتهم الحربية وحبهم للقتال ، من واقع ملاحظاته ومشاهداته لحياتهم وسلوكهم . ولقد كانت حروبهم مع إسماعيل ، وعلى وجه الخصوص معركة كورتي الفاصلة التى عاش هذا الرحالة الإنجليزى أحداثها وشاهدها عن كثب ، فرصة نادرة أتيحت له ليقف بنفسه على حقيقة خصالهم وتقاليدهم في الحرب والقتال

ومنازلة الأعداء . ولقد صور لنا « وادنجتون » ذلك تصويراً رائعاً جاء فيه « إن الشايقية لا يتهيبون الهجوم على أعدائهم على نحو يدعو إلى الدهشة ، فهم يسارعون لمنازلتهم وجهاً لوجه بروح الاستخفاف وعدم المبالاة ، وبقلب منشرح كأنهم ذاهبون إلى احتفال أو مهرجان ، أو تحت تأثير الشعور بالسرور كأنهم قادمون على ملاقاة أصدقاء قدامى افترقوا عنهم منذ أمد طويل . »(١) ويستطرد « وادنجتون » في وصفه قائلاً « وعند النزول إلى أرض المعركة يعطون تحية السلام عليكم ! سلام الموت التي يعقبها على الفور أن يقبض كل واحد على رمحه ويوجه به طعنات قاتلة ، ويستقبل أخرى مع كلمات الحب تخرج من الشفاه »(٢) .

ويرى « وادنجتون » أن هذا اللون من الشجاعة النادرة التي يتحلى بها الشايقية في الحرب والقتال والتي تصل إلى حد الإستخفاف بالحياة وعدم المبالاة بالموت إنما هو قاصر عليهم دون غيرهم من الشعوب ، إذ يقول « إن هذا الإزدراء بالحياة والإستخفاف بأكثر الأمور فزعاً ، إنما هى اعتبارات خاصة بهم ، فهم الشعب الوحيد الذى ينظر إلى الأسلحة وكأنها أدوات لهو ولعب ، وإلى الحرب وكأنها لون من ألوان الرياضة ، لا ينشدون من ورائها سوى مجرد التسلية ، ولا يخشون في الموت شيئاً ، بل يجدون فيه الراحة »(٣) .

وهناك صفة أخرى يمتاز بها الشايقية ولا تقل أهمية عن صفة الشجاعة النادرة التي يتحلون بها عبر عنها وادنجتون بقوله « إن الشايقية قد يتنازعون فيما بينهم ويحارب بعضهم بعضاً ، ولكنهم يتحدون عندما يواجهون خطراً مشتركاً من الخارج »(٤) .

---

(١) Waddington : Op. cit., p. 98.
(٢) المصدر السابق : ص ٩٨ — ٩٩
(٣) نفس المصدر ص ٩٩
(٤) المصدر السابق : ص ٩٤

شجاعةالمرآة الشايقية :

كذلك قدم لنا « وادنجتون » من خلال معركة كورتي بعض الصور الرائعة لشجاعة نساء الشايقية ومشاركتهن للرجال في الحرب بروح عالية . وإن في بعض تقاليد الشايقية الحربية كما يصفها لنا « وادنجتون » نفسه ما يؤكد شجاعة المرأة ، إذ يذكر هذا الرحالة « إن إشارة البدء بالهجوم عند الشايقية — كما عند غيرهم من العرب — تعطيها فتاة عذراء تلبس لباساً فاخراً وتمتطى هجيناً ، ويحافظ الجميع على عفتها وطهرها بما في ذلك الأعداء »(١) ويضيف « وادنجتون » إلى ذلك « إن الإشارة التى تعطيها الفتاة ببدء الهجوم هى « ليللى— ليللى— لوو » وتكرر باستمرار ، وإن هذه الألفاظ ذاتها يعبر بها النساء عادة عند شعورهن بالبهجة والسرور في الولائم والأفراح »(٢) .

على أن « وادنجتون » بعد أن يحدثنا عن نزعة الشايقية الحربية وشجاعتهم النادرة في الحرب والقتال ، كما وقف عليها بنفسه أثناء حروبهم مع إسماعيل ، يؤكد بأن اعتقادهم في السحر وأعمال الشعوذة كان له تأثير واضح لا يمكن إغفاله فيما قاموا به من أعمال بطولية خارقة للعادة ضد قوات كانت تفوقهم عدداً وعدة . فهم — على حد قوله — « قد اعتقدوا أن التعاويذ السحرية التى كتبها لهم السحرة والعرافون في بلادهم ستمنحهم الغلبة والنصر المحقق على أعدائهم مهما كانت قوة هؤلاء الأعداء »(٣) .

ويروى لنا « وادنجتون » في حديثه عن معركة كورتي كيف أن الشايقية أصيبوا بخيبة أمل منقطعة النظير عندما أيقنوا بما لايدع مجالاً للشك بأن عدوهم أقوى من تعاويذهم السحرية . وقد كان أول عمل قاموا به ـ كما يذكر لنا

(١) نفس المصدر ص ٩٦
(٢) نفس المصدر والصفحة .
(٣) Waddington : Op. cit., p. 100.
ويخبرنا « وادنجتون » « بأن السحرة فى بلاد الشايقية كانوا يمثلون طبقة ممتازة فى المجتمع الشايقى ، وان مكانتهم كانت تفوق مكانة الفقهاء والشيوخ فى هذه البلاد » . ويضيف الى ذلك « انهم جميعا كانوا يقطنون قرية بالقرب من مروى تعرف باسم « شبه Shibbah » (المصدر السابق : ص ١٠٠) .

« وادنجتون » الذى عاش معهم هذه المعركة - هو أنهم ساقوا إلى الموت هؤلاء السحرة والعرافين الذين غرروا بهم وخدعوهم على هذا النحو المشين[١] .

ومهما يكن من أمر فإن اسماعيل - كما يروى لنا الرحالة « وادنجتون » - قد عجز كلية في القضاء على نزعتهم الحربية بعد محاولات يائسة قام بها في هذا السبيل لتحويلهم من شعب محارب إلى شعب مزارع يفلح الأرض . وأخيراً رأى هذا القائد ، وبعد أن أذهلته شجاعتهم النادرة في محاربة قواته ، أنه من الحكمة أن يستغل هذه النزعة وتلك الشجاعة التى اشتهروا بها فيما يخدم أغراضه العسكرية في إتمام فتح السودان ، وذلك بأن الحق الكثير من فرسانهم بجيش الحملة .

وفضلاً عن اهتمام « وادنجتون » بدراسة نزعة الشايقية الحربية وبعض عاداتهم وتقاليدهم في الحرب والقتال ، عنى بوصف خصائص الشايقية الجسمانية التى تتعلق بلون بشرتهم وتقاطيع وجههم وقوامهم ، وغير ذلك من الخصائص العضوية التى تميزهم عن سائر الشعوب النوبية التى تجاورهم . وقد أبدى إعجابه بلون بشرتهم ، إذ يقول « إن لون بشرة الشايقية الأسود الحالك - وهم يختلفون عن الزنوج في كل ناحية - الذى يمتاز بصفائه ولمعانه قد بدا لعيوني غير المتحيزة أنه ألطف لون اختاره الله (لبنى البشر .)[٢]

كذلك تناول « وادنجتون » الأقسام السياسية والإدارية في إقليم الشايقية قبل مجئ حملة اسماعيل ، حين أشار إلى الممالك المختلفة التى كان يضمها ، وإلى المدن الرئيسية في كل مملكة ، كما تناول نشأة الشايقية وتاريخ نزوحهم إلى هذا الإقليم الذى أطلقوا عليه إسمهم ، وعرض لحقيقة الظروف والأوضاع التى كان عليها زعماؤهم في ذلك الوقت . وقد استقى « وادنجتون » هذه المعلومات من تحرياته المختلفة التى قام بها بين الشايقية أنفسهم .

حملة اسماعيل على السودان وموقف الشايقية منها :

وأهم من هذا وذاك أنه أتيحت « لوادنجتون » خلال زيارته لهذه البلاد أن يشهد أكبر حدث واجهه الشايقية في تاريخهم الحديث ، وهو مجئ حملة

---

(١) المصدر السابق : ص ١٠٠

(٢) Waddington : Op. cit., p. 127.

اسماعيل إلى ديارهم لإخضاعهم لنفوذ والده محمد على والى مصر». وقد قدر «لوادنجتون» أن يعيش هذا الحدث الخطير عن كثب، وأن يمدنا بتفاصيل ما وقع بينهم وبين إسماعيل قائد الحملة ، وبخاصة الحرب التى خاضوها ضد قواته في معركة كورتي الشهيرة . وإذا علمنا أن الشايقية كانوا القوة الوحيدة التى اعترضت سبيل تقدم حملة اسماعيل إلى الجنوب وأن معركة كورتي بالذات كانت المعركة الفاصلة التى قررت مصير الشايقية ، أدركنا الأهمية التى تنطوى عليها روايات «وادنجتون» وأحاديثه في هذا الشأن .

أسباب مجيء الحملة الى السودان :

وإلى جانب ما أمدنا به «وادنجتون» من المعلومات والحقائق الهامة عن قصة اسماعيل مع الشايقية بكامل تفاصيلها ، وهى أهم ما يلفت النظر في أعمال الحملة العسكرية ، فإنه عالج من وجهة نظره الخاصة الأسباب التى تكمن من وراء إرسال محمد على هذه الحملة إلى السودان ، فهو قد ربطها بطموح الوالى الشخصى إذ يقول «إن طموح محمد على هو أن يمتلك وادى النيل من منبعه إلى مصبه ، وإن يكون سيداً على سكانه جميعاً ممن يشربون من مائه ، من بلاد الحبشة (جنوباً) حتى البحر الأبيض المتوسط (شمالا)»(١) ويستطرد «وادنجتون» قائلاً «وهذا الطموح جدير بأمير عظيم مثله ، إن لم يكن ذلك بدافع الطمع. أما فيما يختص بمشروع فتح بلاد الحبشة فقدتركه عندما بلغه تأكيد رسمى بأن أى هجوم على هذه الدولة المسيحية سوف يوقعه في صدام مع الحكومة الانجليزية . ومن ثم اقتصرت فتوحاته على ممالك دنقلة ، والشايقية ، وبربر ، وشندى ، وسنار ، ويدخل ضمن هذا المشروع إبادة أعدائه القدامى من المماليك الذين بسطوا سلطانهم تماماً على دنقلة .(٢) »

استعدادات الحملة العسكرية :

وبعد أن يعرض «وادنجتون» أهداف الحملة يتناول بالوصف قوتها العسكرية مبدياً وجهة نظره في استعداداتها ، فهو يرى أن تجهيزها بوجه عام

(١) Waddington : Op. cit., p. 91 .

(٢) المصدر السابق : ص ٩١

لم يكن يتناسب مع ضخامة أهدافها ، إذ يقول « إن الوسائل التى استخدمها (محمد على) تبدو لأول وهلة أنها تكاد تتفق والغرض من استخدامها ، فجميع القوة التى تضمها الحملة تبلغ عشرة آلاف رجل لايزيد عدد المقاتلين منهم عن أربعة آلاف مقاتل ، واثنى عشر مدفعاً هى التى جعلت من غير المستطاع مقاومتها . »[١] . ثم يتحدث« وادنجتون » عن الجنود المرتزقة الذين كان يتكون منهم كل جيش الحملة تقريباً فيشرح نظام التحاقهم بالخدمة بصفة عامة ، وفي الحملات العسكرية وهذه الحملة بصفة خاصة التى يقول أن الجنود فيها منحوا مرتب ستة شهور مقدماً قبل أن يغادروا مصر . ثم يصف « وادنجتون » القوات التى كانت تضمها الحملة من الفرق النظامية وغير النظامية وأجناسها المختلفة ، ويتناول بصفة خاصة الحديث عن فرسان البدو الذين كانوا عماد الحملة ، فيصف أسلحتهم والأغاني التى ينشدونها زرافات ووحدانا ، ويقارن بين البدو الأفريقيين والبدو الآسيويين، ويشيد بضراوتهم جميعاً في الحرب والقتال ، وبمهارتهم الخاصة في استعمال الرمح . ويعتبرهم أفضل الجنود غير النظامية وأقدرها على القتال حين يذكر « أن أحسن ا لجنود في الحملة هم البدو الذين يبلغ عددهم حوالى ألف وخمسمائة بدوى. »[٢] ويقول « وادنجتون » أن قسماً منهم فيما يبدو من سكان المنطقة التى قهرت على أيدى الباشا في حملته تجاه معبد الآله آمون ، وقسم آخر من المغاربة من سكان الصحارى المجاورة لطرابلس وتونس ومراكش ، وجميعهم كانوا فرساناً ، وبعضهم كان لديه سونكى معلق على بندقيته . ثم يتحدث « وادنجتون » عن الجنود الألبانيين والجنود الأتراك في حملة اسماعيل فيذكر « أنه كان هناك عدد كبير من الألبانيين ولكنهم لايكونون في هذا الجيش (الحملة) كتائب متنوعة ، كذلك يوجد كثير من الأتراك الآسيويين الذين كانوا أيضاً متفرقين تحت قيادات مختلفة[٣] . »

---

(١) Waddington : Op. cit., p. 92.

(٢) المصدر السابق ص ٩٢

(٣) Waddington : Op. cit., p. 93.

وأخيراً يشير « وادنجتون » إلى كبار القواد في الحملة فيذكر « أن القواد الكبار في الجيش هم عابدين كاشف وكوجى أحمد قائد (قومندان) البدو ، وحسن دار ، والسلحدار ، وعمر كاشف وجميعهم كانوا تحت إمرة القائد الأعلى للحملة .

شخصية اسماعيل قائد الحملة :

ويصف لنا « وادنجتون » شخصية اسماعيل . وقد حظى هو وزميله « هنبرى » بمقابلته حيث قدمهما إليه طبيبه الخاص «بروتوميديكو **Protomedico**» اليوناني الأصل الذى قام بدور المترجم . وقد تمت المقابلة في ١٤ ديسمبر عام ١٨٢٠ ومن خلال هذه المقابلة استطاع « وادنجتون » أن يقف على جوانب هامة من شخصية هذا القائد مثل بعض الصفات والقدرات الطبيعية التى كان يتمتع بها ، ومظهره العام ، ولهجته في الكلام ، وثقافته السياسية العامة من حيث مدى إلمامه بالأحداث الجارية في العالم في ذلك الوقت ، وبخاصة في قارة أوربا .

يقول « وادنجتون » في وصف شخصية اسماعيل « إنه النجل الأصغر لمحمد على ، وهويبلغ من العمر واحداً وثلاثين عاماً ، ويتمتع بشجاعة ذاتيه عظيمة ، وهو كريم إلى درجة كبيرة ، وعنده رغبة قوية في أن يتزود بالعلم والمعرفة ، كما يتمتع بقدرات عقلية كبيرة ، قد تؤهله لأن يصبح في وقت من الأوقات أحد رجال الأتراك العظام . »(١)

ويصف مظهره العام بقوله « إنه لايلبس عمامة ، وإنما يضع على رأسه طربوشاً أحمراً ملفوفاً عليه خيط عريض من الذهب الأصفر ، وهو ما يعد خروجاً على التقاليد التركية ، يزيد بدون شك من فخامة المظهر . »(٢)

ويضيف إلى ذلك « بأن أسلوب حديثه وطريقة كلامه تغاير إلى حد كبير مظهره العام ، فالعيب الذى في سقف فمه يعوق نطقه إلى درجة كبيرة ،

---

(١) Waddington : Op. cit., p.p. 93-94.

(٢) نفس المصدر ص ١٣٠

بحيث يجعل كلامه عبارة عن أصوات متنافرة على التوالى ، وتزداد حدته مع تزايد السرعة في نطقها أو اخراجها حتى ليعجز الإنسان عن فهمها . »[١]

أما عن تفاصيل المقابلة التى تمت بين اسماعيل قائد الحملة والرحالة « وادنجتون » وما دار خلالها من أحاديث تكشف عن جوانب من شخصية هذا القائد فيصفها « وادنجتون » نفسه بقوله « إن الباشا كان له رغبة قوية صادقة في أن يقف على حقيقة الاتجاهات السياسية في أوربا . ولقد أكد له الأمريكيون بأنه لو أن « بونابرت» نجح في الهروب إلى بلادهم ، لما وجد صعوبة كبيرة في استعادة قوته كلها ، كما أكد له شخص آخر (يحتمل أن يكون بروسيا) بأن جميع حكومات أوربا كانت تتمتع بحرية تامة »[٢] .

ويستطرد « وادنجتون » قائلاً « إن اسماعيل سأل عن على باشا في ألبانيا الذى علت شهرته بنجاحه في موقفه ضد الباب العالى ، وعبر عن دهشته من أن انجلترا لم تمد له يد المساعدة . كذلك أثار اهتمامه ما أشيع عن احتمال نشوب حرب بين السويديين والجزائريين . » ويضيف « وادنجتون » إلى ذلك « بأن الباشا كان على معرفة بموقع السويد ، ومتمكناً حسناً في جغرافية أوربا . » ثم يقول « ولكن الموضوع الذى تحدث فيه اسماعيل بحمية وحماس أكبر هو قدرة الروسيا الحربية (وهو موضوع مهد لنا أيضاً للحديث فيه عابدين كاشف) ، وقد سألنا « لماذا سمح لها « الكونجرس » بأن تقوى وتتسع مادياً هكذا ؟ » ويقول « وادنجتون » « إننا لم نجب على هذا السؤال ، ذلك أن سكرتيره الخاص طلب المثول بين يديه » . ويختم «وادنجتون» حديثه قائلاً « وهكذا غادرنا الاجتماع بعد أن مكثنا معه (اسماعيل) أكثر من ساعتين . ولولا هذه المقاطعة لكان من المحتمل أن نمكث وقتاً أطول ، إذ لم يبدو عليه التعب على الإطلاق من المحادثة التى كان يحيطها بالاستعداد العظيم والاهتمام الكبير[٣] » .

---

(١) المصدر السابق : نفس الصفحة .

(٢) **Waddington : Op. cit., p. 130.**

(٣) نفس المصدر والصفحة .

سير الحملة :

أما عن سير الحملة فيصفه « وادنجتون » بقوله « إن الجيش غادر القاهرة مبكراً في الصيف ، وقد عبر الشلالات (الجنادل) أثناء الفيضان ، وتقدم جنوباً دون مقاومة حتى وصل إلى دنقلة الجديدة التي وجد أن المماليك أخلوها ، إذ كانوا قد انسحبوا منها منذ بضعة شهور إلى شندى . » ثم يقول « وكانت الخطوة التالية للجيش الزاحف هى أن يتقدم في وجه الشايقية[1] »

تحدى الشايقية السافر لاسماعيل :

وقد روى لنا « وادنجتون » قصة اسماعيل قائد الحملة مع الشايقية بكامل تفاصيلها وأدوارها المختلفة ، كما عاش أحداثها وسمع أخبارها بنفسه أثناء زيارته لهذه البلاد . فهو يشرح بداية القصة بقوله « إن الباشا (إسماعيل) عند وصوله إلى دنقلة أرسل إلى الشايقية يأمرهم بالخضوع لوالده محمد على . فعبروا له عن استعدادهم لزراعة أراضيهم وتقديم الجزية المقررة . فطلب منهم أن يبرهنوا على ولائهم وإخلاصهم بإرسال أسلحتهم وخيولهم إليه ، فأعادوا على مسامعه ما سبق أن رددوه ، فأجابهم بأن والده قد أمره بأن يحولهم من أمة من المحاربين إلى أمة من المزارعين ، وجدد ما طلبه منهم من قبل ، فأجابوه بتحد سافر « إما أن تمضى إلى حال سبيلك ، أو تأتي لتهاجمنا ، فكان أن وجه الباشا قواته إلى تخومهم[2] » .

---

(١) Waddington : Op. cit., p. 97.

ويقدر « وادنجتون » قوة الشـايقية العسكرية عند مجىء حملة اسماعيل الى بلادهم بحوالى عشرة آلاف مقاتل ، أكثر من الفين منهم من الفرسان (Waddington : Op. cit., p. 95)

(٢) وهـذه الرواية لا تختلف فى جوهرها تقريبـا عما رواه الرحالة الأمريكى « جورج انجلش English » الذى كان أيضا برفقة الحملة ، اذ يروى هذه الرحالة « أنه قد جاء الى معسكر الباشا وفد من شندى من قبل الملك شاويش زعيم الشايقية يعرض على الباشا الصلح ، فأجابهم (الباشا) « بأن الشرط الأساسى لعقد الصلح هو أن يسلموا خيولهم وأسلحتهم ، وأن يرجعوا الى بلادهم فى هدوء وسلام دون أن يزعجوا جيرانهم » . فأجابه أعضاء الوفد « بأنهم لن يسلموا خيولهم وأسلحتهم » فرد عليهم الباشا « بأنه سيأتى اذن الى شندى ويستولى عليها » .

=

كيف وقع أول صدام بين الشايقية واسماعيل :

ثم يقص علينا « وادنجتون » كيف وقع أول صدام بين الشايقية وإسماعيل بالقرب من دنقلة العجوز عندما فوجئ هو وبعض قواده مع عدد قليل من الجند بجماعة من الشايقية يهجمون عليهم ولكن سرعان ماردوا على أعقابهم ، وقد نجح عابدين في أسر إبنة أحد زعمائهم وكانت عذراء ، وقد أرسلها إسماعيل إلى والدها معززة مكرمة . ولكنه أمر في الوقت نفسه بعرض بعض الألعاب النارية ليثير الرعب في نفوس أعدائه ، بيد أن أعداءه بالرغم من ذلك كانوا أقل شعوراً بالخوف مما تخيل أو توقع ، إذ اكتفوا بالتعليق على الأسهم النارية وهى تنطلق في الفضاء بقولهم « ما هذا ؟ هل جاء ليحارب السماء ؟ »

ويمضى « وادنجتون » في وصفه قائلاً « إن هذا المنظر زاد من شجاعتهم ، إذ أخذوا يتصايحون بالقرب من معسكرهم « إنك جئت لتحاربنا ، وسواء جئت من الشمال أو من الشرق أو من الغرب ، فإننا على أى حال سنفنيك »

وصف معركة كورتى :

ولقد وصف لنا « وادنجتون » هذه المعركة وصفاً دقيقاً شرح فيه كيف أحاطت بمعسكر إسماعيل قوة من الشايقية يتراوح عددهابين ثلاثة آلاف وأربعة آلاف رجل ، وكيف توالت هجماتهم على قوات الحملة في بداية المعركة على الرغم من شدة ما قاسوه منها . ثم ما كان من نجاح اسماعيل ونائبه عابدين كاشف في السيطرة على زمام الموقف في أرض المعركة ، بما أبدياه

= ويضيف « انجلش » الى ذلك « انه قد علم بأنه قبل أن يتقدم الباشا من وادى حلفا جاءه الى معسكره وفد من زعماء الشايقية يسألونه « لماذا يريد أن يشتبك معهم فى حرب » فأجابهم بقوله « لأنكم لصوص تعيشون على نهب وسلب الأقاليم المحيطة بكم » فردوا عليه « بأنه ليس لديهم وسائل أخرى يعيشون عليها » فرد عليهم قائلا « ازرعوا أرضكم وعيشوا بأمانه » فأجابوه بسذاجة واضحة « لقد نشأنا لنعيش وتنتعش حياتنا على ما تسميه أنت نهبا وسرقة ، ولا يمكننا أن نغير نظام معيشتنا » فأجابهم اسماعيل « سأجعلكم تغيرونها » .

(English : A narrative of the expedition to Dongola and Sennaar under the command of his Excellence Ismael Pasha, p. 109).

من ضروب الشجاعة والبطولة لمواجهة بسالة الشايقية واستماتتهم في القتال . كما يصور لنا النهاية الحتمية للمعركة ، فيشير إلى ما كان من إدراك الشايقية في آخر الأمر للحقيقة الواقعة وهي عجز أسلحتهم البسيطة وتعاويذهم السحرية عن الصمود أمام أسلحة أعدائهم النارية ، واضطرار فرسانهم إلى الفرار لمعاودة الكرة من جديد . وأخيراً يتناول « وادنجتون » في هذا الوصف الخسائر في الأرواح التي تكبدها كلا الفريقين المتحاربين، فيؤكد أن عدد القتلى من مشاة الشايقية كان كبيراً إذا ما قورن بعدد القتلى من قوات اسماعيل، كما يعرض لأمثلة من أعمال البطولة النادرة التي قام بها الشايقية في المعركة وأثارت دهشة الأتراك وانتزعت إعجابهم منهم . ولقد أبدى « وادنجتون » نفسه ، من واقع ما شاهده وسمعه عن بسالة الشايقية في معركة كورتي، إعجابه الشديد بهم وتقديره لهم كشعب مناضل يبذل روحه رخيصة في سبيل الدفاع عن حريته وكيانه .

مذبحة الشايقية :

على أن المتتبع لأقوال الرحالة «وادنجتون» يرى أن المناوشات بين الشايقية واسماعيل لم تنقطع بعد هزيمتهم في معركة كورتي ، فهو بعد أن يتحدث عن خسائر الفريقين في المعركة ، يشير إلى حادثين معينين وقع فيهما اشتباك بين الطرفين راح ضحيتهما عدد غير قليل من الشايقية ، هذا بخلاف المذبحة التي جاءت في أعقاب المعركة ، وقد أفرد لها «وادنجتون» مكاناً بارزاً في كتاب رحلته تحت عنوان « مذبحة الشايقية » « **Massacre of the Sheygyà** » وصف فيه المذبحة وصفاً مثيراً(١) ، تناول فيه آثارها البشعة ، كما رآها في الشوارع وفي الحقول وعلى شاطئ النهر ، وعرض لتأثيرها السيئ والمؤلم

---

(١) **Waddington : Op. cit., p.p. 118-124.**

لقد وصف الرحالة الأمريكي « جورج انجلش English » السالف الذكر حالة الخراب التي خلفتها هذه المذبحة ، ولكن ليست على النحو المفصل وبالصورة المثيرة التي وصفها بها الرحالة « وادنجتون » ، اذ يذكر «انجلش» « ان الحقول المتلئة بالمحاصيل الزراعية الوفيرة التي كانت على وشك أن تنضج قد هجرت ، والسواقي توقفت عن العمل ، وأحواض المياه أصبحت مصدر رائحة كريهة بسبب الدماء والجثث العفنة التي ألقيت فيها » .

(English : Op. cit., p. 61)

في نفوس من بقى من الشايقية على قيد الحياة من واقع ملاحظاته ومشاهداته على تعبيرات وجوههم وكذلك من خلال الأحاديث التى تبادلها مع بعضهم .

مفاوضات الصلح بين اسماعيل والشايقية :

على أن قصة اسماعيل مع الشايقية - كما يرويها لنا « وادنجتون » نفسه - لم تنته بهذه المذبحة التى ذهب ضحيتها الكثيرون منهم وإنما انتهت بعقد الصلح بين الطرفين . ولقد شرح لنا هذا الرحالة الانجليزى الظروف التى تم فيها ذلك بقوله « إنه في تلك الأثناء كان الأتراك والشايقية في مفاوضات مستمرة (للصلح) . فقد حضر حفيد الملك « صبير » إلى المعسكر اليوم ، ومثَّل أمام الباشا الذى أنعم عليه بعباءة وشال من كشمير . ثم ودعه بالحفاوة والإكرام البالغ[1]. » ويستطرد « وادنجتون » قائلاً « وعلى هذا النحو أغرى بقية هؤلاء العرب التعساء على الخضوع ، وهم حينما ينتشرون في سلام على أرض الإقليم سيحملون أكثرهم قوة وشجاعة على الإذعان[2] . »

ويختم « وادنجتون » حديثه بقوله « وهكذا سيصبح الشايقية حلفاء لقاهرهم وليسوا عبيداً له ، وأن الشجاعة الجديرة بالنصر قد حصلوا على الأقل من ورائها على الراحة والخلاص من العبودية[3] »

ولكن هل نجح إسماعيل ، بعد أن عقد الصلح مع الشايقية وتم له خضوعهم لسلطانه في أن يقضى على نزعتهم الحربية ، ويحولهم من شعب محارب يحرص على اقتناء الخيل والسلاح إلى شعب مزارع يفلح الأرض ويعيش على زراعتها كغيرهم من شعوب بلاد النوبة ؟

إن « وادنجتون » الذى عاش أحداث قصة إسماعيل مع الشايقية بأدوارها وتفاصيلها المختلفة ، وقد شاهد هزيمتهم على يديه ، ، كان يظن أنهم لابد سيخضعون لرغبة الباشا وإرادته ، فهو قد توقع لهم تلك الحياة التى عبر عنها

---

(١) Waddington : Op. cit., p. 147.

(٢) المصدر السابق : ص ١٤٧

(٣) نفس المصدر والصفحة .

في قوله « وربما سيتحول الجيل الثاني للشايقية بعد سنوات قلائل ، وربما في الوقت الحاضر إلى فلاحين يديرون الساقية مثل فلاحى مصر(١) » .

على أن ما توقعه « وادنجتون » من تغيير جوهرى في طبيعة حياة الشايقية بعد هزيمتهم على يد اسماعيل لم يحدث ، ذلك أن النزعة الحربية في هذا الشعب كانت أقوى من أن تضعف أو تستعلى إلى نزعة أخرى طابعها السلم . ولعل هذا ما أدركه محمد على أخيراً ، فقد رأى بعد أن فشلت محاولاته في أن يحولهم من شعب محارب إلى شعب مزارع يفلح الأرض ليعيش على خيراتها ، أن تستغل تلك النزعة الأصيلة فيهم فيما يخدم أغراضه العسكرية نحو إكمال فتح الأقاليم الجنوبية التى لم يكن قد تم للحملة فتحها بعد . وهذا ما صرح به « وادنجتون » في موضع آخر من كتاب رحلته ، حين يقول « إن مصير بقايا فرسان الشايقية لم يكن — تماماً — كما توقعنا . وهذا ما سمعناه على لسان محمد على نفسه ، خلال زيارة له قمنا بها على أثر عودتنا إلى القاهرة . فحالا عقب رحيلنا من المعسكر — اتفق على أن القسم الأكبر منهم الذى أبقى على خيوله وأسلحته التى حارب من أجل الحفاظ عليها سوف يدخل في خدمة إسماعيل باشا وينضم إلى جيشه في زحفه على الشعوب الجنوبية التى كانت أيضاً في حالة عداء معهم(٢) » .

---

(١) Waddington : Op. cit., p.p. 102, 103.

يذكر « وادنجتون » « ان لفظ فلاحين يطلق على العرب العاملين فى مصر ، ولكنه فى عرف الشايقية تعبير عن الذل والاحتقار » .

(Waddington : Op. cit., p. 95).

(٢) Waddington : Op. cit., p. 147.

يبدو أن محمد على لم يكن ليرضيه أن يظل الشايقية فى حالة سخط ونفور من ابنه اسماعيل بسبب اصراره على أن يسلموه أسلحتهم وخيولهم ، وهو ما يكشف عنه هذا الخطاب الذى بعث به اليه يؤنبه فيه على هذه السياسة وينصحه بكسب ودهم . وقد عثرنا عليه ضمن الوثائق المحفوظة بقصر عابدين . وقد جاء فيه :

من الجناب العالى الى اسماعيل باشا سر عسكر السودان .

« ... فيا ولدى الأغر ، ان من المعلوم عن أرباب الحكومة الذين تكون نفوسهم تحت حكم عقولهم أن استجلاب قلوب العباد متوقف على نشر العدالة ، وأن تسخير البوادى والبلاد موقوف على حسن الاستمالة ، ومن الظاهر انه لا يمكن لأى حاكم أن يقوم بعمل بدون عدالة ، كما أن من البديهى=

. . . .

الباهر أنه لا يتمكن من الوصـول الى المنزلة المقصـدة ، والى غاية من غير استمالة . فبناء على ذلك كان من الواجب عليكم أن تمتلكوا أهالى الشايقية بحسن اسـتمالتهم وتملكوهم وبلادهم بتـأمينهم وتأليفهم . فمن العجب تبعيدكم اياهم عنكم وتنفيرهم عن أطاعتكم بتكليفهم اياهم تسليم خيولهم وأسلحتهم . فان كنتم غير مطلعين على أحوال أرباب السيف الذين نجحوا فى أعمالهم فى الأزمان السالفة ، أفلم تستمعوا أو لم تعلموا أن الفرنسيين الذين أتوا الى مصر فى زمن قريب الى أى درجة كانت عدالتهم فى مجيئهم لأجل تسخير البلاد ، والى أى درجة أظهرو العدل حينما أرادوا الذهاب والانسحاب لأجل تأمين سلامتهم وكيف كان مجىء الانجليز وذهابهم مقرونين بالعدل . . .

فياولدى ونور عينى ان من الواضح الجلى أن الأنانى فى هذا العالم يبقى بعيدا عن رضا الخالق سبحانه وتعالى ، والمغرور يكون مهجورا فى نظر الكبار . فأنصحك نصح الوالد الا تكون مع هؤلاء الأنانيين لأن المصلحة التى انتدبتم اليها مصلحة عظيمة ، والممالك التى تقصدها ممالك جسيمة ، ولا يتغلب المرء على مثل هذه المصلحة العظيمة الا بالعدالة ، ولا يملك مثل تلك الممالك الا بمراعاة الرجال المجربين المعتبرين الذين قاموا بأعمـال وأنتجوا أمورا ، وبالاستشارة والمذاكرة معهم فى كل الشئون . . . » .

(ترجمة المكاتبة التركية رقم ١١٧ بتاريخ ٩ ربيع الآخرة سنة ١٢٣٦ ـ دفتر رقم ٧ معية تركى) .